

# في مناقشة النص القرآني

دراسة تحليلية "سورة يوسف"

الأستاذ الدكتور

**مجدي محمد حسين**

أستاذ علم اللغة والنحو

بقسم اللغة العربية - آداب الإسكندرية

٢٠١٨ م

## مقدمة

يتناول هذا البحث سورة (يوسف) بالمناقشة والتحليل في جانبين: الجانب الأول على مستوى المعنى والتفسير، والجانب الثاني على مستوى التركيب، في البحث عن إجابات لما يمكن أن يطرح من أسئلة تخص بعض الآيات.

والبحث دعوة للمناقشة والتفكير والتأمل، فهو نوع من التفسير غير التقليدي للقرآن يمكن أن نسميه بسؤال القرآن أو ما وراء التفسير.،،،

### أولاً - على مستوى المعنى والتفسير :

(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ  
وَقَالَتْ هَيْت لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا  
يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) [يوسف: ٢٣]

كان المانع بالنسبة ليوسف من الوقوع في الفاحشة كما أشار هو مراعاة لصاحب البيت الذي أحسن مثواه، حيث قال لامرأته: (أكرمي مثواه) [يوسف: ٢١]، وليس لأن الزنا حرام وكبيرة من الكبائر ولا يليق به أن يرتكب هذه المعصية، كما كان صادماً أن يصف العزيز بأنه ربه وهو النبي وحرى به أن يتخير ألفاظه ليحقق تمام الربوبية لله بألا يشبهه به أحداً من خلقه، كأن يقول: سيدي أو صاحب البيت... إلخ، فهذه عبارة ملبسة، وتكررت بالسورة أكثر من مرة حيث قال للذي ظن أنه ناج منهما (أذكرني عند ربك) [يوسف: ٤٢]، وقال في موضع آخر: (ارجع إلى ربك) [يوسف: ٥٠].

كما أن في عبارته تلك إقراراً بأنه كان عبداً مصداقاً لقوله تعالى: (وشروه بثمن بخس) [يوسف: ٢٠] والبيع والشراء لا يكون إلا للعبيد، فهل الأمر كذلك؟.

جاء في التفسير الكبير قوله: (ربي أحسن مثواي) أي ربي وسيدي ومالكي أحسن مثواي حين قال لك: (أكرمي مثواه)، فلا يليق بالعقل أن أجازيه على ذلك الإحسان بهذه الخيانة القبيحة،

(إنه لا يفلح الظالمون) الذين يجازون الإحسان بالإساءة، وقيل: أراد الزناة لأنهم ظالمون أنفسهم أو لأن عملهم يقتضي وضع الشيء في غير موضعه.

وكان هناك مخرج جيد لهذا الإشكال بجوانبه المختلفة بجعل المقصود بقوله: (إنه ربي) أي ربي الذي خلقتني، بهذا قال الزجاج ووافق صاحب البحر، وهو مخرج لا بأس به وإن كان خلاف المشهور والمجمع عليه تقريباً.

قال الشوكاني تعليقاً على قول يوسف (إنه ربي أحسن مثواي) تعليل للامتناع الكائن منه ببعض الأسباب التي هي أقرب إلى فهم امرأة العزيز، أي إن هذه المرأة لم يكن يردعها تخويفها بالله ومقاربة هذه الجريمة وهذا الذنب العظيم؛ لذا خوفها بزوجها وسيدها وضرورة مراعاته عليها ترتدع.

\*\*\*\*\*

(قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي ۖ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا  
إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِّنْ قَبْلِ فَصَدَّقَتْ وَهُوَ مِّنْ  
الْكَاذِبِينَ \* وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِّنْ  
الصَّادِقِينَ)

[يوسف: ٢٦، ٢٧]

دائماً ما تستوقفني هذه الجملة القرآنية (وشهد شاهد من أهلها) فالشاهد هو الذي يشهد على شيء رآه بأمر عينيه، أما ما شهد به هذا الشاهد فهو أقرب إلى الاقتراح والحكم منه إلى الشهادة والرؤية، وكان على هذا الحكم الذي سماه القرآن شاهداً أن

يتوقع تمزيق القميص من دُبُر أي الخلف، ويستبعد تمزيقه من قُبُل أي الأمام حتى لو حاول يوسف مراودتها لأن فرارها منه لن يؤدي إلى تمزيق القميص.

قال الرازي: في هذا الشاهد ثلاثة أقوال:

الأول: أنه كان لها ابن عم وكان رجلاً حكيماً واتفق في ذلك الوقت أنه كان مع الملك يريد أن يدخل عليها.

الثاني: هو أيضاً منقول عن ابن عباس: إن ذلك الشاهد كان صبيّاً أنطقه الله تعالى في المهد، فقال ابن عباس: تكلم في المهد أربعة صغار: شاهد يوسف، وابن ماشطة بنت فرعون، وعيسى ابن مريم، وصاحب جريج الراهب.

الثالث: أن ذلك الشاهد هو القميص، قال مجاهد: الشاهد كون قميصه مشقوقاً من دُبُر، وهذا في غاية الضعف لأن القميص لا يوصف بهذا ولا ينسب إلى الأهل.

ونحن نستبعد أن يكون هذا الشاهد طفلاً أنطقه الله ؛ إذ لو كان الأمر كذلك لنطق بجملة واحدة تفيد براءة يوسف، ولا يستقيم أن ينطقه الله ليقدم مقترحات وأفكاراً.

قال الزمخشري: ويجوز أن يكون بعض أهلها كان في الدار، فبصر بها من حيث لا تشعر، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له والقيام بالحق، وهذا كذلك أمر مستبعد لأنه في هذه الحالة مطالب أن يشهد بما رأى لا أن يقدم مقترحات، فما قال به هذا الشاهد يفهم منه أنه لم يشاهد شيئاً.

قال أبو حيان: وسمي الرجل شاهداً من حيث دل على الشاهد، وهو تخريق القميص، وقال الزمخشري: سمي قوله: شهادة، لأنه أدى تأديتها في أن ثبت قول يوسف، وبطل قولها، وقال القرطبي: أي حكم حاكم من أهلها؛ لأنه حكم منه وليس بشهادة.

ووجه دلالة قدّ القميص من دُبر على كذبها أنها تبعته وجذبت ثوبه فقَدته، وأما دلالة قُده من قُبل على صدقها فمن وجهين: أحدهما: أنه إذا كان تابعها وهي دافعتة عن نفسه قُدَّت قميصه من قدام بالدفع، وثانيهما: أن يسرع إليها ليلحقها فيتعثّر في مقام قميصه فيشقه كذا في (الكشاف).

قال الشوكاني: ولا يخفى أن هاتين الجملتين الشرطيتين لا تلازم بين مقدميها وتاليهما، لا عقلاً ولا عادة، وليس هاهنا إلا مجرد أمانة غير مطردة؛ إذ من الجائز أن تجذبه إليها وهو مقبل عليها فينقد القميص من دُبر، وأن تجذبه وهو مدبر عنها فينقد القميص من قُبل.

\*\*\*\*\*

(إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ) [يوسف: ٤٠]

وردت هذه الجملة القرآنية على لسان يوسف أثناء حديثه لصاحبيه في السجن حينما طلبوا منه أن يفسر لهما رؤياهما، فهو حوار بين نبي مسجون وسجينين هما في الغالب وثنيان يعملان أُجراء عند الملك لا حول لهم ولا قوة ولا دخل لهم بالسياسة وأنظمة الحكم لا من قريب ولا من بعيد.

وطالما استشهد بهذه الجملة القرآنية تيار الإسلام السياسي على ضرورة تطبيق الشريعة، لأن الله يقول: (إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ) وكأن المعنى يتعلق بنظام الحكم والحاكم والمحكومين وهم في الغالب يعلمون أن الآية تقصد شيئاً آخر يتعلق بعبادة الله وترك عبادة الأصنام، حيث بدأت الآيات هنا بقوله تعالى: (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ \* يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) [يوسف: ٣٨، ٣٩]؛ قال الزمخشري في معنى الآية: (إن الحكم إلا لله) في أمر العبادة والدين، وقال أبو حيان: أي ليس لكم ولا لأصنامكم حكم، ما الحكم في العبادة والدين إلا لله، وقال ابن عاشور: إبطال لجميع التصرفات المزعومة لآلهتهم بأنها لا حكم لها فيما زعموا أنه من حكمها وتصرفها.

وقالت الآية بعدها: (أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) حيث نهاهم في هذه الآيات عن عبادة الأصنام وإفراد الله بالعبادة.

ولو كان هناك نظام واضح في إدارة البلاد في الشريعة الإسلامية ما اختلف الصحابة بعد وفاة الرسول في تنصيب الخليفة وتعيين الحاكم، واتبعوا نظاماً واحداً للحكم، وهذا ما لم يحدث، وقد رأينا عدة طرق في اختيار الخليفة بدءاً بأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، حتى انتهت إلى معاوية الذي حولها إلى ملك عضود، فلم يتم في أي مرحلة اختيار حاكم مسلم قديماً وحديثاً في ضوء تعاليم إسلامية واضحة.

فلا يستقيم بعد ذلك الاستشهاد بهذه الآية وتطويعها لفكرة الحكم ونظامه، فهو توظيف في غير محله.

وقد وردت العبارة ذاتها على لسان يعقوب أثناء حوار مع أبنائه قبل توجههم إلى مصر ومقابلة العزيز (وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) [يوسف: ٦٧] وليس فيها أي إشارة من قريب أو من بعيد لفكرة الحكم، ولا يحتل الموقف ذلك.

\*\*\*\*\*

(يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمْ فَاسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ۗ وَأَمَا  
الْآخَرَ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ۗ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ  
تَسْتَفْتِيَانِ) [يوسف: ٤١]

هذا هو تأويل يوسف للرؤيا، وهذا التأويل يحتاج إلى وقفة وتحليل بل يحتاج إلى تأويل، حيث قال: (أما أحدكما فيسقي ربه خمرًا) وعندما يذكر الرب ينصرف الذهن إلى المعبود، ويوسف استخدم هذه الكلمة في أربعة مواضع وأراد بها: (السيد أو المالك)، أي في غير ما ينصرف إليها الذهن، فقال عن العزيز (إنه ربي) وقال للذي ظن أنه ناج منهما (اذكرني عند ربك) وقال لرسول الملك (ارجع إلى ربك)، كما أنه قرن بين الرب والخمر (فيسقي ربه خمرًا) فهل كانت الخمر في هذه المنزلة من الحل بحيث يبشر بها نبي؟ ثم تحرم بعد ذلك، فلو كانت حرامًا لكان الأولى أن تكون



كذلك عند كل الأنبياء لا أن تكون حلالاً في زمان وحرماً في آخر، ولماذا لم يقل يوسف "أما أحدكما فيرجع إلى خدمة سيده"؟ وهذا هو معنى عبارته بعيداً عن ذكر الرب والخمر.

كما أن قوله: (قضي الأمر الذي فيه تستفتيان) يكون عند التحليل صادماً، فمن المفترض أن يقدم المشيئة ولا يقطع بقضاء هذا الأمر، وما قاله هو مجرد تفسير للرؤيا، بل يقال إنهما لم يحلما بشيء وأرادا خداع يوسف بادعاء هذه الرؤيا واختباره، فلماذا جزم على هذا النحو الذي يتنافى مع تواضع الصالحين فضلاً عن الأنبياء؟ فلا أدري على وجه الدقة ماذا يعني يوسف بقوله: (قضي الأمر الذي فيه تستفتيان)؟ فهل مجرد تفسيره للرؤيا قطع بقضاء هذا الأمر وحصوله؟ وهذا ما لم يبينه المفسرون.

\*\*\*\*\*

(قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۗ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)

[يوسف: ٥٥]

سارع يوسف هنا عند مقابلة الملك مباشرة إلى طلب هذه الوظيفة الرفيعة، ولم يقم هو بوظيفته الأساسية وهي الدعوة إلى عبادة الله، فلم يبادر إلى دعوة هذا الملك إلى التوحيد وترك عبادة الأوثان ولم يقل له مثلاً (إن الحكم لإلا الله) كما قال لصاحبيه في السجن، علماً بأن المقام هنا أليق وأنسب فهذا هو الحاكم وقد جاءت الفرصة ليدعوه إلى الله، وكأنه كان يبحث عن وظيفة أو يطلب مجداً ومكانة له في المجتمع.

ولا بد أن نسأل من أين اكتسب يوسف الخبرة التي تؤهله لطلب هذه الوظيفة بهذا الحجم (وزيرًا للتموين والمالية)؟ فقد انتقل من البدو بعد خروجه من الجُب وصار فتىً في بيت العزيز ثم سيق إلى السجن ثم بعد ذلك مباشرة طلب هذه الوظيفة.

كما أنه زكى نفسه بقوله: (إني حفيظ عليم) مخالفًا بذلك نصًا قرآنياً صريحاً وهو قوله: (فلا تزكوا أنفسكم) [النجم: ٣٢]، فلماذا لم يترك للملك أن يكتشف قدراته وموهبته؟ ولماذا سارع على هذا النحو بطلب العمل؟ خصوصاً أنهم يقولون إنه أصبح قريباً من سمات الملوك في هيئته ومظهره وملبسه، ولم يصل إلينا أنه نصح الملك ودعاه إلى عبادة الله، خصوصاً أن هذا الملك يحكم أمة، وإيمانه إيمان لأتباعه لأن الناس على دين ملوكهم.

ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي يبدي فيها يوسف إعجابه بنفسه فهو القائل لصاحبيه في السجن: (لأ يأتكما طعام ترزقانه إلا نباتكما بتأويله قبل أن يأتكما) [يوسف: ٣٧]، والقائل لإخوته: (ألا ترون أنني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين) [يوسف: ٥٩]، بل هو القائل لربه في عبارة لا تخلو من الصرامة: (وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن) [يوسف: ٣٣].

ولا ندري على وجه الدقة ماذا يقصد بقوله: (إني حفيظ عليم)، حفيظ على ماذا؟ وعليم بماذا؟.

قال الزمخشري: وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى، وإقامة الحق وبسط العدل والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد، ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك، فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا.

وقال الرازي: الأصل في جواب هذه المسائل أن التصرف في أمور الخلق كان واجباً عليه، فجاز له أن يتوصل إليه بأي طريق كان، إنما قلنا: إن ذلك التصرف كان واجباً عليه لوجوه:

الأول: أنه كان رسولاً حقاً من الله تعالى إلى الخلق، والرسول يجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر الإمكان.

الثاني: وهو أنه عليه السلام علم بالوحي أنه سيحصل القحط والضيق الشديد الذي ربما أفضى إلى هلاك الخلق العظيم، فلعله تعالى أمره بأن يدبر في ذلك ويأتي بطريق لأجله يقل ضرر ذلك القحط في حق الخلق.

والثالث: أن السعي في إيصال النفع إلى المستحقين ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن في العقول.

وإذا ثبت هذا فنقول: إنه عليه السلام كان مكلفاً برعاية مصالح الخلق من هذه الوجوه، وما كان يمكنه رعايتها إلا بهذا الطريق، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فكان هذا الطريق واجباً عليه ولما كان واجباً سقطت الأسئلة بالكلية.

وأما ترك الاستثناء فقال الواحدي: كان ذلك من خطيئة أوجبت عقوبة وهي أنه تعالى أخر عنه حصول ذلك المقصود سنة، وأقول: لعل السبب فيه أنه لو ذكر هذا الاستثناء لاعتقد فيه الملك أنه إنما ذكره لعلمه بأنه لا قدرة له على ضبط هذه المصلحة كما ينبغي فلأجل هذا المعنى ترك الاستثناء.

وأما قوله لم مدح نفسه فجوابه من وجوه:

الأول: لا نسلم أنه مدح نفسه لكنه بين كونه موصوفاً بهاتين الصفتين النافعتين في حصول هذا المطلوب، وبين البابين فرق وكأنه قد غلب على ظنه أنه يحتاج إلى ذكر هذا الوصف لأن الملك وإن علم كماله في علوم الدين لكنه ما كان عالمًا بأنه يفني بهذا الأمر.

قال ابن عاشور: وهذه الآية أصل بوجوب عرض المرء نفسه لولاية عمل من أمور الأمة إذا علم أنه لا يصلح له غيره لأن ذلك من النصح للأمة، وخاصة إذا لم يكن ممن يهتم على إثارة منفعة على مصلحة الأمة، وقد علم يوسف عليه السلام أنه أفضل الناس هنالك لأنه كان المؤمن الوحيد في ذلك القطر، فهو لإيمانه بالله يبيث أصول الفضائل التي تقتضيها شريعة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام.

وقيل معنى: (حفيظ عليم) أي حفيظ بجميع الوجوه التي منها يمكن تحصيل الدخل والمال، عليم بالجهات التي تصلح لأن يصرف المال إليها، ويقال حفيظ بجميع مصالح الناس، عليم بجهات حاجاتهم أو يقال: حفيظ لوجوه أياديك وكرمك، عليم بوجوب مقابلتها بالطاعة والخضوع.

وأورد الماوردي أربعة تأويلات في هذين الوصفين:

أحدها: حفيظ لما استودعتني، عليم بما وليتني.

الثاني: حفيظ بالكتاب، عليم بالحساب.

الثالث: حفيظ بالحساب، عليم بالألسن.

الرابع: حفيظ لما وليتني، عليم بسني المجاعة.

\*\*\*\*\*

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ  
مُنْكَرُونَ [يوسف: ٥٨]

لنا مع هذه الآية وقفان: وقفة لغوية وأخرى منطقية، فأما اللغوية فقوله: (وهم له منكرون) والحق أنهم لم ينكروه ولكن لم يعرفوه كما نفهم من مضمون القصة، فالإنكار يعني إدعاء عدم المعرفة وهذا ما لم يحدث ولكنهم جهلوا أنه أخوهم ولم يتذكروه، أي ما كانوا منتبهين وكانوا عنه غافلين، وكأن هذا الوصف (منكرون) يتنافى مع الدقة القرآنية.

أما الوقفة الثانية: فهو ما صرحت به الآية إجمالاً من عدم معرفة إخوة يوسف له، فهذا أمر مستغرب وغير منطقي، فمن الضروري أن خبر يوسف ذاع بين الناس، ومن الضروري أنهم تحدثوا عن جماله الفائق ونُبل خلقه وعدله، وأنه عبراني جاء من البدو، كل هذه القرائن مع رؤية يوسف كانت كفيلة أن يتعرفوا عليه في الحال، خصوصاً أنهم اكتفوا بإلقائه في الجب وأبقوه حياً، بخلاف جماله المتميز والذي فاق الوصف فلا بد أن تتطبع صورته في كل النفوس، فما بالك بإخوته الذين عاشوا معه ردحاً من الزمن، من هنا أورد المفسرون تبريرات غير منطقية يمكن الرد عليها إذ لا تخلو من التكلف والبعد، بل بعضها يسيء إلى يوسف النبي وبعضها الآخر مخترع اختراعاً وتتنافى مع العقل، وليس هناك مبرر لعدم إمكانية معرفة هؤلاء لأخيهام سوى أن يكونوا بلهاء غير مدركين، وهذا احتمال بعيد، خصوصاً أنهم في نهاية المطاف صاروا أنبياء.

قال الزمخشري: لم يعرفوه لطول العهد ومفارقتهم إياهم في سن الحادثة، ولا اعتقادهم أنه قد هلك، ولذهابه عن أوهامهم لقلّة فكرهم فيه واهتمامهم بشأنه، ولبعد حاله التي بلغها من الملك والسلطان عن حاله التي فارقه عليها طريقاً في البئر، مشرياً بدراهم معدودة؛ حتى لو تخيل لهم أنه هو لكذبوا أنفسهم وظنونهم؛ ولأن الملك مما يبذل الزي ويلبس صاحبه من التهيّب والاستعظام ما ينكر له المعروف، وقيل: رأوه على زي فرعون: عليه ثياب الحرير جالساً على سرير، في عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج؛ فما خطر ببالهم أنه هو، وقيل: ما رأوه إلا من بعيد بينهم وبينه حجاب، وما وقفوا إلا حيث يقف طلاب الحوائج وإنما عرفهم؛ لأنه فارقه وهم رجال ورأى زيهم قريباً من زيهم إذ ذاك، ولأن همته كانت معقودة بهم وبمعرفتهم، فكان يتأمل ويتفطن.

وقيل: سبب ذلك أنه سبحانه لم يخلق العرفان في قلوبهم تحقيقاً لما أخبر أنه سينبئهم بأمرهم وهم لا يشعرون فكان ذلك معجزة له - عليه السلام - ، وهذا التوجيه الأخير هو الوحيد المقبول.

\*\*\*\*\*

(قَالُوا سَنَرَاوُدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ) [يوسف: ٦١]

لا ندري على وجه التحديد لماذا كتم يوسف شخصيته عن إخوته؟ ولماذا لم يخبرهم بحقيقة الأمر؟ ولم يسارع إلى إبلاغ أبيه الذي عانى كثيراً لفقده، ولماذا طلب إحضار أخيه؟ وما الحكمة في ذلك؟.

وجاء هذا الكلام على لسان إخوة يوسف بعد أن طلب منهم أن يأتوا بأخ لهم من أبيهم، وهددهم بعدم الكيل لهم إن لم يمتثلوا لأمره فقالوا: (سنراود عنه أباه وأنا لفاعلون) والمرادة ترتبط في الاستعمال القرآني واللغوي بطلب الفجور، كما راودت امرأة العزيز يوسف، وقيل معناها المخادعة والاحتيال، وكان المتوقع أن يقولوا سنحاول إقناع أبيه والحصول على موافقته، هذا هو الكلام اللائق من أنبياء يخاطبون أباهم الشيخ الكبير النبي، وهذا هو اللائق من يوسف ولا يليق منهم جميعاً أن يمارسوا الخداع والاحتيال.

أما عن إيثار هذا الفعل (سنراود) فيبدو لتردده في السورة ذاتها ست مرات من قبل: (وراودته التي هو في بيتها) [٢٣]، (قال هي راودتني عن نفسي) [٢٦]، (وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) [٣٠]، (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) [٣٢]، (وما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه) [٥١]، (قالت امرأة العزيز أنا راودته عن نفسه) [٥١]، فكان الفعل هنا صدقاً لتردده في هذه المواضع، وكما أشرنا مراراً أن كلمات القرآن يستدعي بعضها بعضاً حتى ولو اختلف المعنى وتباعد.

كما أن قوله: (وإنا لفاعلون) بعد قوله: (سنراود عنه أباه) يعد تكراراً؛ إذ لم يضيف شيئاً جديداً إلا إذا قدرنا كلاماً محذوفاً، ويبدو أن هذا التكرار وهذا التركيب وقع بطلب من الفاصلة أي خاتمة الآية.

قال الرازي: أي سنجتهد ونحتال على أن ننزعه من يده، وإنا لفاعلون هذه المرادة، والغرض من التكرير/التأكيد، ويحتمل أن يكون (وإنا لفاعلون) أن نجيبك به، ويحتمل (وإنا لفاعلون) كل ما في وسعنا من هذا الباب.

قال الماوردي:

أولاً: يجوز أن يكون الله عز وجل أمره بذلك ابتلاء ليعقوب  
ليُعظم له الثواب فاتّبع أمره فيه.

ثانياً: يجوز أن يكون أراد بذلك أن ينبه يعقوب على حال  
يوسف.

ثالثاً: لتضاعف المسرة ليعقوب برجوع ولديه عليه.

رابعاً: ليقدم سرور أخيه بالاجتماع معه قبل إخوته لميله إليه.

\*\*\*\*\*

**وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ  
يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**

[يوسف: ٦٢]

كلما مضيت مع سورة يوسف أخذتني الدهشة وأصبت بصدمة  
جديدة من بعض جوانب وتفاصيل هذه القصة الغريبة، فكنت  
أحسب أن البضاعة التي أمر يوسف فتنيانه أن يجعلوها في رحال  
إخوته هي تلك الميرة والزداد الذي حصلوا عليه، إلا أن المفسرين  
أجمعوا على أن المراد بالبضاعة ما دفعوا من أثمان مقابل  
الحصول على هذه الأشياء، قال القرطبي: وبضاعتهم أثمان  
ما اشتروه من الطعام، وقيل: كانت دراهم ودنانير، وقال ابن عباس:  
النعال والأدم ومتاع المسافر، أي التي وصلوا بها من بلادهم، أي  
إن يوسف أمر فتنيانه برد ما دفعه إخوته ووضعها في رحالهم، من  
هنا أخذتني الدهشة بل الصدمة من تصرف يوسف في أموال عامة



ملك الدولة على هذا النحو، وهو النبي المؤتمن والقائل (إني حفيظ عليم) ووصفه الملك بأنه (مكين أمين)، هل كان يليق بيوسف أن يفعل ذلك وأن يحابي إخوته لإرضاء أبيه ولغرض في نفسه؟ هل يمكن أن يتخذ المسؤولون هذه الآلية حجة ليخصوا أسرهم بقدر مما يقع تحت تصرفهم مقتضين بما فعله يوسف؟ فيمنح مثلاً وزير الإسكان بعضاً من أسرته أراضي بالمجان، ويمنح وزير البترول أهله محروقات دون مقابل ودون حرج... إلخ.

والغريب أن المفسرين لم يثيروا من قريب أو بعيد إلى سوء هذا التصرف وضرره على الدعوة.

كما لا أدري على وجه الدقة ما المقصود بقوله: (لعلهم يعرفونها) ما محلها من التركيب؟ هل يمكن أن يجهلوا بضاعتهم؟ هل الغاية أن يعرفوها أم ترد إليهم ويحصلوا عليها؟.

أورد الرازي عدة تبريرات برر بها ما فعله يوسف على سبيل الشرح والتفسير دون الإشارة إلى ما يمكن أن يكون في هذا التصرف من خطأ:

الأول: أنهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه، علموا أن ذلك كان كرمًا من يوسف وسخاءً محضًا فبيعتهم ذلك على العود إليه والحرص على معاملته.

الثاني: خاف أن لا يكون عند أبيه من الورق أي: الفضة ما يرجعون به مرة أخرى.

الثالث: أراد به التوسعة على أبيه لأن الزمان كان زمان قحط.

الرابع: رأى أن أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع شدة حاجتهم إلى الطعام لؤم.

الخامس: قال الفراء: إنهم متى شاهدوا بضاعتهم في رحالهم وقع في قلوبهم أنهم وضعوا تلك البضاعة في رحالهم على سبيل السهو وهم أنبياء وأولاد الأنبياء فرجعوا ليعرفوا السبب فيه، أو رجعوا ليردوا المال إلى مالكه.

السادس: أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم به عيب ولا منة.

السابع: مقصوده أن يعرفوا أنه لا يطلب ذلك الأخ لأجل الإيذاء والظلم ولا لطلب زيادة في الثمن.

الثامن: أراد أن يعرف أبوه أنه أكرمهم وطلبه له لمزيد الإكرام فلا يثقل على أبيه إرسال أخيه.

التاسع: أراد أن يكون ذلك المال معونة لهم على شدة الزمان وكان يخاف اللصوص من قطع الطريق، فوضع تلك الدراهم في رحالهم حتى تبقى مخفية إلى أن يصلوا إلى أبيهم.

العاشر: أراد أن يقابل مبالغتهم في الإساءة بمبالغته في الإحسان إليهم.

\*\*\*\*\*

(قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا  
كُنَّا سَارِقِينَ) [يوسف: ٧٣]

سارع إخوة يوسف إلى نفي التهمة عنهم بالقسم بأن متهميهم يعلمون أنهم ما جاءوا ليفسدوا في الأرض وما سبق لهم أن سرقوا، فهل هذه الدفوع تصلح لنفي التهمة ومعرفة الناس بهم محدودة لأنهم غرباء من بلد آخر ولا يعرف أحد عنهم شيئاً؟ فهل كان هناك أدلة على ما يقولون؟.

اخترع المفسرون ما يمكن أن يكون تبريراً لهذه الجملة القرآنية التي حاول بها إخوة يوسف نفي التهمة عنهم، قال الزجاج: لأنهم كانوا لا ينزلون على قوم ظلماً، ولا يرعون زرع أحد، وجعلوا على أفواه إبّلهم الأكمة لئلا تعبت في زرع، وقالوا: (وما كنا سارقين) لأنهم قد كانوا فيما روي ردوا البضاعة التي وجدوها في رحالهم، أي فمن رد ما وجده كيف يكون سارقاً؟.

وشرح الرازي عبارة الزجاج بشكل أكثر وضوحاً، قال: قال المفسرون حلفوا على أمرين: أحدهما: على أنهم ما جاءوا لأجل الفساد في الأرض لأنه ظهر من أحوالهم امتناعهم من التصرف في أموال الناس بالكلية لا بالأكل ولا بإرسال الدواب في مزارع الناس، حتى روي أنهم كانوا قد سدوا أفواه دوابهم لئلا تعبت في زرع، وكانوا مواظبين على أنواع الطاعات، ومن كانت هذه صفته فالفساد في الأرض لا يليق به.

والثاني: أنهم ما كانوا سارقين، وقد حصل لهم فيه شاهد قاطع، وهو أنهم لما وجدوا بضاعتهم في رحالهم حملوها من بلادهم إلى مصر ولم يستحلوا أخذها، والسارق لا يفعل ذلك البتة.

أما القول بأنهم ردوا البضاعة التي وجدوها في متاعهم فهذا أمر مستبعد لم يشر إليه القرآن ولا يفصح عنه كلامهم عندما فوجئوا بوجود البضاعة في متاعهم بل عبروا عن سعادتهم بذلك بقولهم: (هذه بضاعتنا ردت إلينا)، وكأنه حق مكتسب ورزق جاءهم من السماء.

قال ابن عاشور: لأنهم كانوا وفدوا على مصر مرة سابقة واتهموا بالجوسسة فتبينت براءتهم بما صدقوا يوسف عليه السلام فيما وصفوه من حال أبيهم وأخيه، وهذا أيضاً بعيد.

كما أن المتوقع منهم كذلك أن يقولوا - إن كان لا بد أن يقولوا شيئاً - "تالله ماجئنا لنفسد في الأرض" الآية، بنفي التهمة عنهم أما جوابهم "تالله لقد علمتم"... إلخ فتعد عبارة غريبة عند التأمل لأن متهميهم لم يعلموا شيئاً.

\*\*\*\*\*

(فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)

[يوسف: ٧٦]

اسمحو لي أن أفكر بصوت مرتفع وأن أناقش هذا الأمر وهذه القصة الغريبة وأن نبحث لها عن إجابات قبل أن يسألنا الآخرون فنعجز عن الجواب، فمن الضروري أن نعد أنفسنا للإجابة على هذه الأسئلة وغيرها التي طرحتها والتي ربما لا تخلو من بعض الشطط خصوصاً أننا نعيش في عالم مختلف عالم متصل ليس بينه فاصل، وهم بالفعل يتناولون هذه الأمور ولكن لأهداف غير نبيلة، يتناولونها بشكل فيه تشويه للإسلام وسخرية من القرآن، ونحن نتناول بعضها محاولين الحصول على إجابة شافية لمثل هذه الإشكالات.

فلم يعد في استطاعتنا يا سادة إخفاء رؤوسنا في الرمال أكثر من ذلك ففي مقدورهم إزاحة هذه الرمال بوسائلهم الخاصة وكشف رؤوسنا ومواجهتنا ببعض الحقائق التي نحاول إخفاءها ولم يعد يجدي السكوت عليها، وهذا ما يسعى إليه البحث الذي يمثل جزءاً من تفسير ضخم.

فما الذي دعا سيدنا يوسف إلى سلك هذا المسلك المحفوف بالمخالفات؟ فقد ارتكب عدة أمور لا تليق بالمؤمن فضلاً عن أن يكون نبياً قدوة وأسوة يقتدى بها الناس، وكان في مقدوره أن يطلب من إخوته بشكل مباشر استبقاء أخيه عنده، وهم في الغالب سيرحبون أو على الأقل سيقبلون مضطرين، وفي كل الأحوال سيتم له المراد دون الحاجة إلى هذه السبل الملتوية.

فقد وضع الصواع في رجال أخيه ليثبت عليهم تهمة السرقة وادعى أنهم سارقون وبالتالي كاذبون لأنهم أنكروا هذا الأمر، وكانوا بالطبع هذه المرة صادقين، ثم بدأ بأوعيتهم ليحبك المسألة

متظاهراً بعدم معرفته بمكان هذا الصواع الذي خبأه بنفسه أو بواسطة العاملين عنده (ثم استخرجها من وعاء أخيه) مسبباً حرجاً وخجلاً لإخوته وخصوصاً لأخيه بنيامين - حتى ولو قيل إنه أخبره بالأمر مسبقاً- فهذه مسألة غير مؤكدة أراد بها المفسرون تهوين الأمر، فهو بذلك وقع في عدة مخالفات كان في غنى عنها بخلاف ما سوف يصيب أباه من الحزن والأسى وشدة الالتئاع لفقد ابنه الثاني، وبالضرورة تحسب يوسف لهذا الأمر وتوقع حدوثه، من هنا سألنا ألم يكن من الممكن أن يتحقق له ما أراد دون اتخاذ هذه الإجراءات والتصرفات غير اللائقة عُرفاً ودينياً؟ ويقول المفسرون إنه كان يستغفر الله من هذا الذنب بعد تفتيش كل وعاء على حدة، فما أغناه عن هذا كله؟.

والآية تقول: (ثم استخرجها من وعاء أخيه) والكلام عن صواع الملك المشار إليه سلفاً بصيغة التذكير (قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير) [يوسف: ٧٢] وهنا جعلته الآية مؤنثة (استخرجها)، فهل الصواع مذكر أم مؤنث؟ أم كان الكلام عن شيء آخر؟.

كذلك كان المتوقع أن تقول الآية في ضوء ميل القرآن إلى الإيجاز: "فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعائه" دون تكرار أخيه ثانية فلماذا أظهر ولم يضم حسبما تقضي القواعد؟.

ثم تقول الآية: (كذلك كدنا ليوسف) وهذا معناه أن هذا التدبير بإلهام وتوجيه من الله، وهذه مسألة بشكل مجرد تبدو غريبة: فمن جهة يكون إسناد الكيد إليه سبحانه أمراً لا يخلو من دهشة

واستغراب لأن الكيد في كل الأحوال من الصفات المستقبحة وهو غالباً ما يرتبط بالشر ويصدر من الأشرار ومن أهل السوء، فقد أسنده القرآن إلى الشيطان (إن كيد الشيطان كان ضعيفا) [النساء: ٧٦] وأسنده كذلك إلى النسوة اللاتي مكرن بيوسف: (إن كيدكن عظيم) [يوسف: ٢٨] ومع ذلك أسند هذا المعنى إليه سبحانه في غير آية: (وأُملي لهم إن كيدي متين) [الأعراف: ١٨٣]، (إنهم يكيدون كيذاً وأكيد كيذاً) [الطارق: ١٥-١٦].

ومن جهة أخرى قد يقول قائل: إن يوسف ما كان في حاجة إلى أن يكيد له ربه وهو الفطن والذكي والذي تعلم من تأويل الأحاديث، فلم يكن الأمر من الصعوبة بحيث يتعذر عليه تدبير هذه المكيدة، وفي هذا تحقيق منتهى التنزيه له سبحانه بتجنب إسناد هذا الفعل إليه.

قوله: (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله) تبرير لهذا الكيد، وقد يكون هذا التبرير غير مقنع بحال، فيقال إن دين الملك هو أن يدفع السارق ضعف قيمة ما سرق، أما دين آل يعقوب فهو أن يصير هذا السارق عبداً يسترق، أي: يكون من الرقيق، وأحسب أن دين الملك بدفع غرامة مضاعفة أهون من تحويل نبي إلى عبد من الرقيق وأحفظ لكرامته، بل وكرامة يوسف نفسه فيما بعد حين تتبين الأمور.

وهم يقولون إن إخوة يوسف هم الذين حددوا بأنفسهم مقدار هذه العقوبة، يستشف ذلك من قولهم - كما يقولون - (من وجد في رحله فهو جزاؤه) [يوسف: ٧٥] وإن كانت هذه العبارة بالنسبة لي لا تفيد ذلك، ومع ذلك لا يخلو هذا الأمر من دهشة واستغراب،

فالجاني لا يخيّر في نوع العقوبة حال إقامتها عليه ولا يُستشار، ومن المفترض أن هناك نظامًا متبعًا يطبق على الجميع خصوصًا أن الدولة لها ملك وعدة وزراء وهم أصحاب حضارة ونظام.

كما لا تتضح العلاقة بين هذه القصة العجيبة وما ختمت به من قوله: (نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم) فهل رفع سبحانه درجات يوسف بهذه القصة، أم درجات شقيقه المتهم بالسرقة، أم درجات يعقوب الذي زادت عليه المحن والنكبات؟.

ثم أخيرًا نتساءل ماذا يمكن أن نتعلم من هذه القصة؟ هل تُعلمنا الآية وتجزئ لنا الاحتيال على الناس في سبيل الوصول إلى مبتغانا حتى ولو أدى إلى ذلك ارتكاب بعض المخالفات قد ترقى إلى الكبائر من مكر وكذب وظلم وإيذاء للناس في أعراضهم للوصول إلى هدف قد يبدو نبيلًا وغاية محمودة؟.

قوله: (إلا أن يشاء الله) قد يفهم منه أن الله شاء بالفعل أن يأخذ أخاه في دين الملك وهذا خلاف ما يستخلص من الآية وما انتهى إليه الأمر؛ لذا تساءلنا ما قيمة هذا الاستثناء؟.

كما أننا في الحقيقة، أعني: المسلمين في هذه الفترة تحديدًا في حاجة إلى أن يمكر الله لنا، فقد تكالبت علينا الأمم وصرنا ألعوبة لهم، وقد عجزت حيلتنا وخارت قوتنا، بل وأصبحنا أضحوكة لهؤلاء وليس هناك سبيل سوى أن تتدخل السماء ويتغمدنا الله برحمته، فهل يمكن أن يتم ذلك؟.

والشيء بالشيء يذكر فمن المعلوم أن اليهود بارعون في المكر واختلاق المكائد أينما حلوا وكأنهم يسيرون على درب أنبيائهم وعلى رأسهم سيدنا يوسف وكذلك أيوب الذي احتال ليبر



قسمه كما أشار القرآن: (وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث) [ص: ٤٤] فهم يمكرون بنا كما كان يمكر الكفار بالنبي الأمي (وإذ يمكر بك الذين كفروا) [الأنفال: ٣٠]، فمتى يمكر لنا ربنا؟!!

قالوا: رجع ضمير المؤنث إلى السقاية وضمير المذكر إلى الصواع أو يقال: الصواع يؤنث ويذكر، فكان كل واحد منهما جائزاً أو يقال: لعل يوسف كان يسميه سقاية وعبده صواعاً فقد وقع فيما يتصل به من الكلام سقاية وفيما يتصل بهم صواعاً، قال الكوفيون: المستخرج (السرقه) لذا أنثها.

قال الزمخشري مدافعاً عن موقف يوسف ومبرراً ما قام به من أفعال قد تبدو غير مقبولة بقوله: هو في صورة البهتان وليس ببهتان في الحقيقة؛ لأن قوله: إنكم لسارقون تورية عما جرى مجرى السرقة من فعلهم بيوسف، وقيل: ذلك القول من المؤنث لا من يوسف، وقوله: (إن كنتم كاذبين) فرض لانتفاء براءتهم، وفرض التكذيب لا يكون تكذيباً على أنه لو صرح لهم بالتكذيب كما صرح لهم بالتسريق لكان له وجه، لأنهم كانوا كاذبين في قولهم: (وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب) [يوسف: ١٧]، وحكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية؛ كقوله تعالى لأيوب عليه السلام: (وخذ بيدك ضغثاً) [ص: ٤٤]؛ ليتخلص من جلدها ولا يحنث، وكقول إبراهيم عليه السلام (هي أختي) لتسلم من يد الكافر، وما الشرائع كلها إلا مصالح وطرق إلى التخلص من الوقوع في المفسد، وقد علم الله تعالى في هذه الحيلة التي لقنها يوسف مصالح عظيمة، فجعلها سلماً وذريعة إليها فكانت حسنة وجميلة وانزاحت عنها وجوه القبح.

قوله: (كدنا ليوسف) يعني علمناه إياه، وأوحينا به إليه، وقال الضحاك والسدي (كدنا) صنعنا، قال ابن عطية: وأضاف الله تعالى الكيد إلى ضميره لما أخرج القدر الذي أباح ليوسف أخذ أخيه مخرج ما هو في اعتياد الناس كيد، وفسر ابن عباس (في دين الملك) بسلطانه، وفسره قتادة بالقضاء والحكم، وقيل: عاداته، أي لا يظلم بلا حجة، ومجاهد: في حكمه وهو استرقاق السراق.

قيل المعنى: دبرنا، قال ابن الأنباري: أردنا؛ قال الشاعر:

كادتْ وكِدَتْ وتلك خيرُ إرادةٍ لو عاد من عهد الصَّبَا ما قد مَضَى

قال القرطبي: وفيه جواز التوصل إلى الأغراض بالحيل إذا لم تخالف شريعة، ولا هدمت أصلاً خلافاً لأبي حنيفة في تجويزه الحيل وإن خالفت الأصول وحزمت التحليل.

\*\*\*\*\*

(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلُنَا  
الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا<sup>ط</sup>  
إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ)

[يوسف: ٨٨]

ما زال أمر إخوة يوسف يثير في نفسي العجب، فحتى الآن لم يتعرفوا على أخيهم يوسف رغم تميزه ورغم مخاطبته لهم وجهاً لوجه أكثر من مرة كما في هذه الآية: (قالوا يا أيها العزيز).

كما أنهم تركوا صلب الموضوع الذي جاءوا من أجله وتناولوا موضوعاً بعيداً كل البعد، وطلبوا منه أن يتصدق عليهم وكأنهم

كانوا يتسولون، فلماذا لم يدخلوا في الموضوع مباشرة، وهو طلب رد أخيه؟.

ويبدو أنهم بمقولتهم تلك كانوا يروغون، فلم يثبت أن معهم بضاعة كاسدة وماجأوا لذلك، فما قالوه يعد كذباً لا مبرر له:

نشير بداية إلى ضرورة تقدير كلام محذوف، فبعد أن أمرهم أبوهم ذهبوا إلى مصر ووصلوا إليها بالفعل وتمكنوا من الدخول على العزيز.

قال الرازي: لأن المتحسسين يتوسلون إلى مطلوبهم بجميع الطرق والاعتراف بالعجز وضيق اليد ورقة الحال وقلة المال وشدة الحاجة مما يرقق القلب فقالوا: نجربه في ذكر هذه الأمور فإن رق قلبه لنا ذكرنا له المقصود وإلا سكتنا، فلهذا السبب قدموا ذكر هذه الواقعة وقالوا: (يا أيها العزيز).

وقال أبو السعود: وإنما لم يبدأوا بما أمروا به استجلاباً للرأفة والشفقة لبيعثوا بما قدموا من رقة الحال رقة القلب والحنو.

قال ابن جريج: المعنى "تصدق علينا" بردّ أخينا إلينا، وقال ابن شجرة "تصدق علينا" تجوز عنا؛ واستشهد بقول الشاعر:

تَصَدَّقْ عَلَيْنَا يَا ابْنَ عَفَّانٍ وَاحْتَسِبْ وَأَمْرٌ عَلَيْنَا الْأَشْعَرِيُّ لِيَالِيَا

\*\*\*\*\*

(اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا  
وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ)  
[يوسف: ٩٣]

فكرة إلقاء القميص على وجه يعقوب تقترب من فعل السحرة (وأصحاب الأعمال) فهم يفعلون شيئاً قريباً من ذلك بوضع شيء ما في مكان ما ليحصل المطلوب، فهل هو ترسيخ لهذا الفكر ولكن على يد نبي؟ ولا غرو فقد قال القرآن في شأن جده إبراهيم: (فنظر نظرة في النجوم) [الصافات: ٨٨] وهذا من فعل المنجمين، وكان يوسف كان أقوى إيماناً وأشد تأثيراً من أبيه فلا يبصر إلا بمعونته.

ودائماً ما أقف عند قوله: (ألقوه) وأتساءل لماذا لم يقل ضعه برفق تأدباً مع أبيهم ومراعاة لظروفه الصحية؟ خصوصاً أنه ضرير وإلقاء القميص على وجهه إلقاءً قد يفزعه من أثر المفاجأة، أم كان هذا الأمر شرطاً لرد بصره إليه بإحداث نوعاً من الصدمة له؟.

كما أن قوله: (يأت بصيراً) قد يعني على مستوى التركيب أن الفعل (أتى) من أخوات كان بمعنى (صار) كما قال في موضع آخر: (فارتد بصيراً) [يوسف: ٩٦] فقالوا (ارتد) من أخوات كان، فهل كذلك الفعل (أتى)؟.

قيل: هو القميص الذي توارثه يوسف، وكان في عنقه وكان من الجنة أمره جبريل - عليه السلام - أن يرسله إليه فإن فيه ريح الجنة، لا يقع مبتلى ولا سقيم إلا عوفي، وقيل: كان لإبراهيم كساه الله إياه من الجنة حين خرج من النار، ثم لإسحاق، ثم ليعقوب، ثم

ليوسف، وقيل: هو القميص الذي قدّ من دبر أرسله ليعلم يعقوب أنه عصم من الفاحشة، والظاهر أنه قميص من ملبوس يوسف بمنزلة قميص كل واحد، قال ذلك ابن عطية، وهكذا تتبين الغرابة في أن وجد يعقوب ريحه من بعد، ولو كان من قميص الجنة ما كان في ذلك غرابة، ولوجده كل أحد.

قال ابن عاشور: وأما إلقاء القميص على وجه أبيه فلقصد المفاجأة بالبشرى لأنه كان لا يبصر من بعيد فلا يتبين رفعه القميص إلا من قرب.

وجعل القاسمي معنى الإلقاء على وجهه المبالغة في التقريب منه.

قيل: معنى (يأت بصيرًا) أي يصبح وبصير، أو يكون الفعل على أصله أي يأتي إليّ بصيرًا.

\*\*\*\*\*

## ثانياً - على مستوى التراكيب

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ<sup>ط</sup> وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ)

[يوسف: ٢٤]

جاء نظم الآية ملبساً وملغزاً، فلم يبين على وجه التحديد هل همَّ يوسف بارتكاب هذه المعصية أم لم يهَمَّ؟ والجملة تحتل الوجهين، فلو قيل مثلاً: (ولولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها) لفهم أنه لم يهَمَّ، وفي المقابل لو قيل: (وهمَّ بها) دون قوله: (لولا أن رأى برهان ربه) لفهم العكس إلا أن الأمر جاء معلقاً ومتوقفاً على اجتهاد المفسر واعتبارات أخرى خارجية، قال القرطبي: اختلف العلماء في همه، وأما يوسف فهمَّ بها، (لولا أن رأى برهان ربه) ولكن لما رأى البرهان ما همَّ.

وقال الرازي في هذه المسألة قولان:

الأول: يوسف عليه السلام همَّ بالفاحشة، قال المفسرون الموثوق بعلمهم المرجوع إلى روايتهم همَّ يوسف أيضاً بهذه المرأة همَّاً صحيحاً وجلس منها مجلس الرجل من المرأة، فلما رأى البرهان من ربه زالت كل شهوة عنه، قال جعفر الصادق بإسناده عن عليّ عليه السلام أنه قال: طمعت فيه وطمع فيها فكان طمعه فيها أنه همَّ أن يحل التكة، وعن ابن عباس قال: حل الهميان وجلس منها مجلس الخائن، وعنه أيضاً أنها استلقت له وجلس بين رجلها ينزع ثيابه.

الثاني: أن يوسف عليه السلام كان بريئاً عن العمل الباطل،  
والهم المحرّم، وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين، وبه  
نقول وعنه نذب.

وقال صاحب البحر: والذي أختاره أن يوسف عليه السلام لم  
يقع منه همّ بها البتة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان.

وجمع الماوردي الوجوه المختلفة في هذه المسألة في ستة أقوال:  
أحدها: أنه همّ بها أن يضربها حين راودته عن نفسه ولم يهم  
بمواقعتها.

الثاني: أن قوله: (ولقد همت به) كلام تام قد انتهى، ثم ابتداء  
الخبر عن يوسف فقال: (وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) ومعنى  
الكلام لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها.

الثالث: أن همها كان شهوة، وهمه كان عفة.

الرابع: أن همه بها لم يكن عزمًا وإرادة وإنما كان تمثيلاً بين  
الفعل والترك، ولا حرج في حديث النفس إذا لم يقترن به عزم ولا  
فعل، وأصل الهم حديث النفس حتى يظهر فيصير فعلاً.

الخامس: أن همه كان حركة الطباع التي في قلوب الرجال  
من شهوة النساء وإن كان قاهرًا له.

السادس: أنه هم بمواقعتها وعزم عليه.

وفي كل الأحوال وسواء همّ يوسف أم لم يهم فإن امتناعه  
اقتراف هذه المعصية لم يكن لقوة إرادته وقوة إيمانه بل لسبب  
خارجي وهو ما رأى من برهان ربه أي أدركته العناية الإلهية لئلا

يقع في هذه المعصية أيًا كان هذا البرهان، وهذه الحقيقة لا تعطي ليوسف مزية في هذا الشأن.

\*\*\*\*\*

(فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) [يوسف: ٣١]

(قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَأَسْأَلُهُ مَا بَالُ النَّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) [يوسف: ٥٠]

ما من مرة أقرأ فيها هذه الآية إلا شعرت شيئًا من المبالغة الزائدة؛ إذ كيف يؤدي رؤية هؤلاء النسوة ليوسف إلى أن يقمن بتقطيع أيديهن وليس فقط خدشها وجرحها؟ بل إن في خدشها وجرحها مبالغة فما بالك بقطعها بل تقطيعها، مهما قيل في شأن جمال يوسف وحسنه، ولو كان يوسف على هذا القدر من الجمال - الذي لا يخلو هو كذلك من المبالغة - لانتشر أمره بين الناس ولكانت رؤيته مطلبًا ومسعىً من الجميع، ولم يكن يوسف مثلًا ابن الملك فحُجب عن الناس حفاظًا عليه بل كان أقرب إلى العبد في بيت سيده العزيز، وهو القائل: (إنه ربي أحسن مثواي) [يوسف: ٢٣]، ووصفه القرآن كذلك بأنه فتاها (وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) [يوسف: ٣٠].

كما أن النسوة اللاتي حكى القرآن أنهن قطعن أيديهن كن قريبات من صاحبة البيت يعمل بعضهن عندها ومن الضروري أنهن رأين يوسف من قبل، خصوصًا ما قيل عن فتنته وجماله.



قيل هن أربع: امرأة ساقى العزيز، وامرأة خبازه، وامرأة صاحب سجنه، وامرأة صاحب دوابه.

قيل: كان فضل يوسف على الناس في الفضل والحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وعن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "مررت بيوسف عليه السلام ليلة عرج بي إلى السماء فقلت لجبريل عليه السلام من هذا؟ فقال هذا يوسف، فقيل يا رسول الله كيف رأيته؟ قال: كالقمر ليلة البدر"، وقيل: كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يُرى تَأَلُّؤُ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من السماء عليها.

وقد قال القرآن في شأن السارق والسارقة: (فاقطعوا أيديهما) [المائدة: ٣٨] ولو قال (فقطّعوا) لجاز لأنه يعني فصل الرسغ عن اليد، في حين قال هنا: (قطّعن أيديهن) وكما أشرت فإن مجرد الخدش والجرح يعد مبالغة، فما بالك بالتقطيع، وقد بالغ أحدهم وهو وهب بن منبه فقال: "بالمُدَى حتى بلغت السكاكين إلى العظم"، ومع ذلك شعر بعضهم بشيء من المبالغة فقالوا المقصود بالأيدي الأكمام.

والجدير بالذكر هنا أن يوسف نفسه أعاد هذا المعنى في موضع آخر في قوله: (فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن) [يوسف: ٥٠] فهل كان يوسف مبالغاً أم يقول الحقيقة؟ أترأه أحس شيئاً من الزهو والعُجب بنفسه وهو القائل لصاحبه في السجن: (لا يأتكما طعام تزرقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتكما) [يوسف: ٣٧].

وكنت أتوقع أن يقرأ أحد القراء من العشرة أو من دونهم (وقطعن) بالتخفيف، فهي أقل مبالغة من القراءة المجمع عليها بالتشديد التي هي مبالغة في التقطيع، والغريب أن أحدًا لم يقرأها مخففة.

\*\*\*\*\*

وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي  
أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا  
تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْنَأُ بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ

[يوسف: ٣٦]

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ  
عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ  
أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ [يوسف: ٤٣]

جاء هذا الكلام على لسان صاحبي يوسف في السجن وعلى لسان الملك، يحكون الرؤيا التي رأوها في المنام، فكان المفترض أن يعبر عن ذلك بصيغة الماضي لأنهم يحكون عن شيء قد مضى وانقضى وكان البدهي أن يقول ثلاثتهم: "إني رأيتني" أو: "إني رأيت"، إلا إذا كانوا لا يحسنون قواعد العربية، وكأنني بهم يخبرون عن هذا الحلم وهم نيام، وكأن حلمهم ينقل على الهواء مباشرة.

ولم يشر المفسرون إلى هذه اللفظة المخالفة للقواعد وتجاوزوها ربما لأنهم لم يكن لديهم ما يقولون سوى ما ذكر أبو حيان مثلاً من أنه عبر بالمضارع عن الماضي لحكاية الحال، وهذا المصطلح من

اختراع النحاة والبلاغيين للفرار من مثل هذه الإشكالات التي تكررت في القرآن، نحو: (واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان) [البقرة: ١٠٢] أي: ما تلت، ومثل ذلك يقال في قوله: (يأكلهن) والقياس (أكلهن) لأنه شيء قد مضى، ومما قاله المفسرون كذلك إنه جيء بالمضارع بدلاً من الماضي لاستحضار الصورة، وكلها تبريرات ليست بالقوية.

والغريب في الأمر في هذه القصة ما ذكره المفسرون من أن الفتيين لم يريا شيئاً، وإنما أرادا أن يختبرا يوسف: فقال أحد الفتيين هلم فلنختبر هذا العبد العبراني برؤيا نخترعها له فسألاه من غير أن يكون رأياً شيئاً، قال ابن مسعود: ما كانا رأياً شيئاً وإنما تحالما ليختبرا علمه.

\*\*\*\*\*

(وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ<sup>ط</sup>  
قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي<sup>ط</sup> هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا<sup>ط</sup> وَنَمِيرُ أَهْلَنَا  
وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ<sup>ط</sup> ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ)

[يوسف: ٦٥]

تحتاج كل كلمة بهذه الآية إلى وقفة وتساؤل مسأرة لمنهجنا التفكيكي الذي نستعين به في فهم هذه الآيات الملغزة والشديدة الغموض.

بدأت الآية بقوله: (ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم)، والمتاع: الطعام أو الوعاء الذي يوضع فيه الطعام، واتساقاً مع ما سبق يفترض أن تكون بضاعتهم في رحالهم وليس في

متاعهم اتفاقاً مع قول يوسف لفتيانه: (اجعلوا بضاعتهم في رحالهم) [يوسف: ٦٢] ولم يقل "في متاعهم" من هنا تساءلنا هل فتحوا متاعهم أم فتحوا رحالهم؟.

والمتفق عليه أن المقصود ببضاعتهم أثمان ما دفعوا من دراهم وخلافه للحصول على الميرة، ولو احتكنا إلى الدقة لانتبهنا إلى أن ما وجدوه لم تعد بضاعتهم وصارت ملكاً للدولة التي امتاروا منها، وكان عليهم أن يشعروا بشيء من الإزعاج لظهور هذه البضاعة في متاعهم لا أن يعبروا عن فرحهم وسعادتهم بذلك، وهذا خلاف ما توقعه المفسرون من أن يوسف أقدم على جعل بضاعتهم في رحالهم ليكونوا أكثر حرصاً على ردها وهم أنبياء أولاد نبي، ولم يصدر عن يعقوب ما يفيد ذلك بأن يطلب منهم مثلاً إعادة هذه الدراهم إلى أصحابها لأنها وصلتهم عن طريق الخطأ.

ثم نأتي إلى قوله: (يا أبانا ما نبغي) لنتساءل مع المفسرين: هل (ما) استفهامية أم نافية؟ وهل (نبغي) كما قرأ الجمهور أم (تبغي) كما قرأ النبي وابن مسعود؟ هل معنى (نبغي) نطلب أم نتجاوز ونفتري؟.

وتشعر بانعدام الصلة بين قوله (ونمير أهلنا ونحفظ أخانا) الذي يحكي عن أشياء في المستقبل، والكلام السابق عليه ويتعذر عطف الكلام بعضه على بعض.

ويقال إن هذه البيئة وهذه المنطقة لم تكن تعرف البعير وكانت تستعمل الحمير في تنقلاتها، فهل هو (كيل بعير) أم (كيل حمير) كما قال بعضهم؟.

ثم نأتي إلى قوله: (ذلك كيل يسير) لنسأل: من القائل؟ وما معناها؟ وما علاقتها بالتركيب؟.

قال الزمخشري: أعطفها على قوله: ما نبغي على معنى: لا نبغي فيما نقول، ونمير أهلنا، ونفعل كيت وكيت، ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ كقولك: وينبغي أن نمير أهلنا: كما تقول: سعيت في حاجة فلان، واجتهدت في تحصيل غرضه، ويجب أن أسعى وينبغي لي ألا أقصر، ويجوز أن يراد: ما نبغي وما ننطق إلا بالصواب فيما نشير به عليك؛ من تجهيزنا مع أخينا، ثم قالوا: هذه بضاعتنا نستظهر بها ونمير أهلنا ونفعل، ونصنع بياناً لأنهم لا يبيغون في رأيهم وأنهم مصيبون فيه.

ورد في (ما) قولان:

**القول الأول:** أنها للنفي، وعلى هذا التقدير ففيه وجوه:

الأول: أنهم كانوا قد وصفوا يوسف بالكرم واللفظ وقالوا: إنا قدمنا على رجل في غاية الكرم أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من آل يعقوب لما فعل ذلك، فقولهم (ما نبغي) أي بهذا الوصف الذي ذكرناه كذباً ولا ذكر شيء لم يكن.

الثاني: أنه بلغ في الإكرام إلى غاية ما وراءها شيء آخر، فإنه بعد أن بالغ في إكرامنا أمر ببضاعتنا فردت إلينا.

الثالث: المعنى أنه رد بضاعتنا إلينا، فنحن لا نبغي منك عند رجوعنا إليه بضاعة أخرى، فإن هذه التي معنا كافية لنا.

**والقول الثاني:** أن كلمة (ما) هاهنا للاستفهام، والمعنى: لما رأوا أنه رُد إليهم بضاعتهم قالوا: ما نبغي بعد هذا، أي أعطانا الطعام،

ثم رد علينا ثمن الطعام على أحسن الوجوه، فأى شيء نبغي وراء ذلك؟.

وُفِّرَ ما تبغي على خطاب يعقوب عليه السلام أي شيء تبغي وراء هذه المباغي المشتمة على سلامة أخيها وسعة ذات أيديها أو وراء ما فعل بنا الملك من الإحسان داعياً إلى التوجه إليه، أو أي شيء تبغي شاهداً على صدقنا فيما وصفنا لك من إحسانه.

وإما نافية فالمعنى ما نبغي شيئاً غير ما رأينا من إحسان الملك في وجوب المراجعة إليه أو ما نبغي غير هذه المباغي، وقيل ما نطلب منك بضاعة أخرى، وأما إذا فسر البغي بمجاوزة الحد (ما) نافية فقط والمعنى ما نبغي في القول وما نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك إلينا وكرمه الموجب لما ذكر.

قال أبو حيان: قوله: (ذلك كيل يسير) من كلامهم، لا من كلام يعقوب، والإشارة بـ (ذلك) الظاهر أنها إلى (كيل بغير) أي (يسير) بمعنى قليل، يجيبنا إليه الملك ولا يضايقنا فيه، أو (يسير) بمعنى سهل عليه متيسر لا يتعاضمه، وقيل: يسير عليه أن يعطيه، وقال الحسن: وقد كان يوسف - عليه السلام - وعدهم أن يزيدهم حمل بغير بغير ثمن، قال الزمخشري: أي ذلك مكيل قليل لا يكفينا، يعني: ما يكال لهم فازدادوا إليه ما يكال لأخيهم، ويجوز أن يكون من كلام يعقوب، أي: حمل بغير واحد شيء يسير لا يخاطر لمثله بالولد.

\*\*\*\*\*

(قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا  
بِهِ زَعِيمٌ) [يوسف: ٧٢]

الكلام هنا على لسان المجموع (نفقد صواع الملك) فكان المنطقي أن تختتم الآية على هذا النحو "ونحن به زعماء"، ولكن حدث تحول عجيب من الجمع إلى الأفراد، وليس من الصعب معرفة السبب، فهو مراعاة للفاصلة، ف (زعماء) لاتصلح أن تختتم بها الآية؛ لذا ارتد إلى المفرد (زعيم) على وزن (فعيل) وهي قريبة مما قبلها ومما بعدها من فواصل، وصيغة فعيل ضرورية على رؤوس الآي مهما استدعى ذلك من تغييرات، قيل القائل لهذه الجملة (وأنا به زعيم) هو ذلك المؤذن الذي قال: (أيتها العير إنكم لسارقون) [يوسف: ٧٠]، قال الشوكاني: ولعل القائل (نفقد صواع الملك) هو المنادي، وإنما نسب القول إلى الجماعة لكونه واحداً منهم، ثم رجع الكلام إلى نسبة القول إلى المنادي وحده لأنه القائل بالحقيقة.

وكان المتوقع أن يقول هذا القائل: "وأنا به متعهد وضامن وكفيل لأن الزعم مجرد ادعاء وظن"؛ لذا قالوا (زعيم) بمعنى كفيل في لغة أهل اليمن، أقول وهل هذا مبرر لتترك اللغة المجموع عليها، أم إن هذا المنادي كان خبيراً بلغة أهل اليمن؟.

وأخيراً نقول الآية إن الشيء الذي فقد هو صواع الملك، علماً بأن الشيء الذي طلب يوسف إخفائه في رحل أخيه كان السقايا، فهل هو (صواع) أم (سقايا) أم هما بمعنى واحد؟.

\*\*\*\*\*

(قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا  
يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ  
أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ)

[يوسف: ٧٧]

هذا القول من إخوة يوسف في هذا الموقف يصعب أن يصدر من عقلاء، فضلاً عن أن يكونوا أنبياء، فكأنهم كانوا يهزون هذواً، ونقل إلينا القرآن هذا الهذيان كما نقل عن المشركين قولهم في شأن القرآن: إنه أساطير الأولين، وفي الرسول: إنه لمجنون، فما معنى أن يقولوا: (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) ما علاقة هذا بذلك؟ وكأنهم يقولون: إن السرقة واللصوصية طبع وديدين في أسرتنا وهي شيء معتاد، وهذا معناه إثبات الجريمة على أنفسهم لأن السارق في النهاية واحد منهم وهو صغير ولا يبعد أن يكونوا قد قاموا بتحريضه، فكلامهم ليس له محل من الإعراب ومن الفهم.

وتشعر هذه الجملة الشرطية أن ما قام به بنيامين من ارتكاب هذه الجريمة ليس أمراً مستبعداً لأن أخصاً مثله سبق له أن سرق، وكأن هناك قاعدة تقول: إذا كان هناك شخص يسرق في أسرة فمن المحتوم أن إخوته كذلك يسرقون أو على الأقل بعضهم، وهذا خلاف الواقع، فليس هناك علاقة بين جواب الشرط وفعله.

ومن المفترض أنهم يتحدثون عن شيء قد مضى، وقولهم: (إن يسرق) يشير إلى شيء في المستقبل فلا بد من تصحيح الكلام، أي إن ثبت أنه قد سرق فقد سرق أخ له من قبل.

كما أن قولهم: (فقد سرق أخ له من قبل) قد يعني نفياً أن يكون يوسف أخاهم، هذا ما يفيد التركيب وليس كما فسره



المفسرون بأنهم أرادوا أنه أخ من الأم لأن هذا الأمر لا يتعارض مع كونه أخًا لهم، فقولهم هذا يفتقد إلى الدقة.

كما أن قولهم هذا يتناقض مع قولهم من قبل: (وما كنا سارقين) [يوسف: ٧٣]، فإذا كان لهم أخ سرق من قبل فهذا يعني أنهم كانوا سارقين لأن السارق واحد منهم.

والأغرب من هذا كله موقف يوسف الذي أسرها في نفسه؛ إذ كيف قبل أن يتهم بالسرقة وهو العزيز؟ بل قالوا هو الملك، لماذا لم يكشف عن شخصيته وعن حقيقة الأمر؟ وما المبرر على هذا الكتمان، خصوصًا أن في ذلك مزيدًا من الألم لأبيه؟ وكأن يوسف بسكوته هذا يثبت على نفسه التهمة، فكيف به وهو النبي يرضى بهذا الاتهام؟ هل وقع منه ذلك بالفعل كما أشار المفسرون؟ أم تُرى أن هذه الروايات من الإسرائيليات لحبك القصة، حتى أن بعضهم قال إن يوسف كانت لديه خبرة في المكر والاحتيال؛ لذا تمكن من إخفاء الصواع في رحل أخيه كما أخفى شيئًا من قبل في صغره، بل يستخلص من مجموع هذه الروايات أن المكر والدهاء والاحتيال أمور متأصلة في آل يعقوب بدءًا من عمته مرورًا بإخوته وانتهاءً بيوسف نفسه.

قال الرازي: واعلم أن ظاهر الآية يقتضي أنهم قالوا للملك: إن هذا الأمر ليس بغريب منه فإن أخاه الذي هلك كان أيضًا سارقًا، وكان غرضهم من هذا الكلام أنا لسنا على طريقته ولا على سيرته، وهو وأخوه مختصان بهذه الطريقة لأنهما من أم أخرى، واختلفوا في السرقة التي نسبوها إلى يوسف عليه السلام على أقوال:

الأول: قال سعيد بن جبير: كان جده أبو أمه كافرًا يعبد الأوثان فأمرته أمه بأن يسرق تلك الأوثان ويكسرها فلعله يترك عبادة الأوثان ففعل ذلك، فهذا هو السرقة.

الثاني: أنه كان يسرق الطعام من مائدة أبيه ويدفعه إلى الفقراء، وقيل سرق عناقًا من أبيه ودفعه إلى المسكين، وقيل الدجاجة.

والثالث: أن عمته كانت تحبه حبًا شديدًا فأرادت أن تمسكه عند نفسها، وكان قد بقي عندها منطقة لإسحق عليه السلام وكانوا يتبركون بها فشددتها على وسط يوسف ثم قالت بأنه سرقها وكان من حكمهم بأن من سرق يسترق، فتوصلت بهذه الحيلة إلى إمساكه عند نفسها.

والرابع: أنهم كذبوا عليه وبهتوه وكانت قلوبهم مملوءة بالغضب على يوسف بعد تلك الوقائع، وبعد انقضاء تلك المدة الطويلة، وهذه الواقعة تدل على أن قلب الحاسد لا يطهر عن الغل البتة.

قال أبو حيان: وقولهم: (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) لا يدل على الجزم بأنه سرق، بل أخرجوا ذلك مخرج الشرط، أي: إن كان وقعت منه سرقة فهو يتأسى ممن سرق قبله، فقد سرق أخ له من قبل، والتعليق على الشرط على أن السرقة في حق بنيامين وأخيه ليس مجزومًا بها، كأنهم قالوا: إن كان هذا الذي رمي به بنيامين حقًا فالذي رمي به يوسف من قبل حق، لكنه قوي الظن عندهم في حق يوسف بما ظهر لهم أنه جرى من بنيامين، ولذلك قالوا: (إن ابنك سرق).

وقال القرطبي: المعنى: أي اقتدى بأخيه، ولو اقتدى بنا ما سرق؛ وإنما قالوا ذلك ليبرعوا من فعله لأنه ليس من أهمهم، وأنه إن سرق فقد جذبته عرق أخيه السارق؛ لأن الاشتراك في الأنساب يشاكل في الأخلاق.

جاء في الفتح القدير: وحكى القرطبي في تفسيره عن الزجاج أنه قال: كذبوا عليه فيما نسبوه إليه، قلت: وهذا أولى، فما هذه الكذبة بأول كذباتهم، وقد قدمنا ما يدفع قول من قال إنهم قد كانوا أنبياء عند صدور هذه الأمور منهم، والحق أن هؤلاء ليسوا أنبياء عند صدور هذه الأمور منهم ولا بعد ذلك، فنسبتهم إلى الأنبياء إهانة لمقام النبوة، فلا يليق أن تصدر هذه التصرفات وهذه الأخلاق من عباد الله الصالحين فضلاً عن أن يكونوا أنبياء مخلصين.

قوله تعالى: (فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم)، اختلفوا في عود الضمير من (فأسرها):

قال الزجاج: فأسرها: إضمار على شريطة التفسير، تفسيره أنتم شر مكاناً، وإنما أنت لأن قوله: (أنتم شر مكاناً) جملة أو كلمة لأنهم يسمون الطائفة من الكلام كلمة كأنه قال: فأسر الجملة أو الكلمة التي هي قوله: (أنتم شر مكاناً).

الوجه الثاني: وهو أن الضمير في قوله: (فأسرها) عائد إلى الإجابة كأنهم قالوا: (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) فأسر يوسف إجابتهم في نفسه في ذلك الوقت ولم يبدها لهم في تلك الحالة إلى وقت ثان، ويجوز أيضاً أن يكون إضماراً للمقالة، والمعنى: أسر يوسف مقالتهم، والمراد من المقالة متعلق تلك المقالة

كما يراد بالخلق المخلوق، وبالعلم المعلوم، يعني أسر يوسف في نفسه كيفية تلك السرقة، ولم يبين لهم أنها كيف وقعت وأنه ليس فيها ما يوجب الذم والطعن.

\*\*\*\*\*

(فَلَمَّا اسْتِئْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكَمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) [يوسف: ٨٠]

قيل كبيرهم هو (روبيل) لأنه أكبرهم سنًا، وقيل (يهودا) لأنه أكبرهم عقلاً، وقيل غير ذلك، وقد يشعر سؤاله بأنه يلقي عليهم معلومة جديدة لا علم لهم بها من قبل، والأقرب أن يقول لهم: "الأ تذكرون أن أباكم قد أخذ عليكم موثقًا" لأنهم يعلمون ذلك بالفعل، هذا أمر لفت انتباهي ولم يلتفت إليه مفسر.

ثم تشعر في قوله: (ومن قبل ما فرطتم في يوسف) كأن (ما) مقحمة إقحامًا ومحشورة حشرًا، فما دورها في التركيب؟.

كما عبر عن عدم مغادرته مصر بقوله: (فلن أبرح الأرض) وهذا أسلوب قرآني غريب تكرر في مواضع شبيهة يذكر فيها بقعة من البقاع ويعبر عنها بالأرض وكأنها كل الأرض، وكأنه بعودته إلى بلاده قد فارق الأرض وانتقل إلى القمر أو إلى السماء مثلاً، قال تعالى في شأن الذين يحاربون الله ورسوله: (أو ينفوا من الأرض) [المائدة: ٣٣]، وقال في شأن المنافقين: (ما لهم في الأرض من ولي ولا نصير) [التوبة: ٧٤]، والملاحظ أن لفظة الأرض

تكررت في هذه السورة في أكثر من موضع: (وكذلك مكننا ليوسف في الأرض) [٢١]، (قال اجعلني على خزائن الأرض) [٥٥]، (وكذلك مكننا ليوسف في الأرض) [٥٦]، (تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض) [٧٣]، (فاطر السماوات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة) [١٠١]، (وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها) [١٠٥]، (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا) [١٠٩].

ثم يأتي قوله: (حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي) لي طرح عدة أسئلة: لماذا قدم إذن أبيه على حكم الله؟ وكيف يمكن أن يبلغه حكم الله؟ وهل إذن أبيه يختلف عن حكم الله؟:

قال الزمخشري: (ما فرطتم في يوسف) فيه وجوه: أن تكون (ما) صلة أي: زائدة، أي: ومن قبل هذا قصرتم في شأن يوسف، ولم تحفظوا عهد أبيكم، وأن تكون مصدرية على أن محل المصدر الرفع على الابتداء وخبره الظرف، وهو من قبل، ومعناه ووقع من قبل تفريطكم في يوسف، أو النصب عطفاً على مفعول ألم تعلموا، وهو أن أباكم كأنه قيل: ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقاً، وتفريطكم من قبل في يوسف من الجناية العظيمة، ومحل الرفع أو النصب على الوجهين.

قال أبو حيان: ثم غيا ذلك بغايتين إحداهما خاصة، وهي قوله: (حتى يأذن لي أبي) يعني في الانصراف إليه، والثانية عامة، وهي قوله: (أو يحكم الله لي) لأن أذن الله له هو من حكم الله له في مفارقة أرض مصر، وكأنه لما علق الأمر بالغاية الخاصة رجع إلى نفسه، فأتى بغاية عامة تفويضاً لحكم الله تعالى، ورجوعاً إلى من له الحكم حقيقة، ومقصوده التضييق على نفسه، كأنه سجنها

في القطر الذي أداه إلى سخط أبيه إبلاء لعذره، وحكم الله تعالى له بجميع أنواع العذر، كالموت وخلص أخيه، أو انتصافه من أخذ أخيه، وقال أبو صالح: (أو يحكم الله لي) بالسيف، أو غير ذلك.

وقال الشوكاني في قوله: (أو يحكم الله لي): أي بمفارقتها والخروج منها؛ وقيل المعنى: أو يحكم الله لي بخلص أخي من الأسر حتى يعود إلى أبي وأعود معه؛ وقيل المعنى: أو يحكم الله لي بالنصر على من أخذ أخي فأحاربه وأخذ أخي منه، أو أعجز فأصرف بعد ذلك.

وأوردوا في شجاعة أخيه هذا حكايات أقرب إلى الخرافات والأساطير، وهي في جملتها منقولة عن الإسرائيليات التي حكى عن قوة هذا الأخ وكأنه شمشوم الجبار أو الرجل الأخضر، ونحن نتسامى عن ذكر هذه الترهات والتي وردت في بعض كتب التفاسير، كتفسير القرطبي، وكان أولى به أن يترفع عن ذكر هذه الخزعبلات.

\*\*\*\*\*

(قَالَ بَن سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

[يوسف: ٨٣]

هذا ما أجاب به يعقوب أولاده الذين أخبروه أن ابنه سرق، وطلبوا منه أن يسأل القرية والعيير، فقال: (بل سولت لكم أنفسكم أمراً) وهذه الجملة تحديداً قالها يعقوب من قبل في المرة الأولى عندما ادعى إخوة يوسف أن الذئب أكله، فكررها ثانية، إلا أنه في

هذه المرة - على ما يبدو - أساء الظن بهم، والذي سولت له نفسه في الحقيقة يوسف بإبقاء أخيه عنده.

ثم قال: (عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً) وهما اثنان يوسف وأخوه، فالقياس (بهما) فلماذا جمع؟:

قال بعضهم إن قوله: (بل سولت لكم أنفسكم أمراً) ليس المراد منه هاهنا الكذب والاحتيال كما في قوله في واقعة يوسف عليه السلام حين قال: (بل سولت لكم أنفسكم أمراً) لكنه عنى سولت لكم أنفسكم إخراج بنيامين عني والمسير به إلى مصر طلباً للمنفعة فعاد من ذلك شر وضرر وألحتم عليّ في إرساله معكم ولم تعلموا أن قضاء الله إنما جاء على خلاف تقديركم، وقيل: بل المعنى سولت لكم أنفسكم أمراً خيلت أنفسكم أنه سرق وما سرق.

قال أبو حيان: والظاهر أن قوله: (بل سولت لكم أنفسكم أمراً) إنما هو ظن سوء بهم، كما كان في قصة يوسف قبل، فاتفق أن صدق ظنه هناك، ولم يتحقق هنا، وقال الزمخشري (بل سولت لكم أنفسكم أمراً) أردتموه، وإلا فما أدري ذلك الرجل أن السارق يؤخذ بسرقة، لولا فتواكم وتعليمكم.

قوله: (عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً) أي بيوسف وأخيه بنيامين والأخ الثالث الباقي بمصر وهو كبيرهم، وإنما قال هكذا لأنه قد كان عنده أن يوسف لم يمت، وأنه باقٍ على الحياة وإن غاب عنه خبره.

قال الرازي: وإنما قال: (عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً) لأنهم حين ذهبوا بيوسف كانوا اثني عشر فضاع يوسف وبقي أحد عشر، ولما أرسلهم إلى مصر عادوا تسعة لأن بنيامين حبسه

يوسف واحتبس ذلك الكبير الذي قال: (فلن أبحر الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي) [يوسف: ٨٠]، فلما كان الغائبون ثلاثة لا جرم قال: (عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً).

ولا يبعد عندي أن يكون المراد بقوله (بهم) يوسف وأخوه، بدليل قوله بعد ذلك: (يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) [يوسف: ٨٧]، خصوصاً أن ثالثهم بقي في مصر برغبته ولم يكن مفقوداً أو محجوراً، وكان الضمير دليل على جواز بدء الجمع من الاثنين كما ورد ذلك في مواضع كثيرة.

\*\*\*\*\*

(قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ)  
[يوسف: ٨٩]

السؤال من يوسف على هذا النحو وبشكل مجرد سؤال عجيب وغريب، فهو أولاً ليس له صلة بما قبله ويقولهم: (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلْنَا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ) [٨٨]، وهو ثانياً كأن به تناقضاً فلا يقال لمن فعل شيئاً هل علمت ما فعلت؟ ويمكن أن يقال له هل تذكر ما فعلت؟ عتاباً وتوبيخاً، فالذي يفعل شيئاً يعلمه بالضرورة، وقد قال أخوهم من قبل: (ألم تعلموا) [يوسف: ٨٠] بدلاً من "ألم تذكروا".

كما أنهم في الحقيقة لم يفعلوا بأخيه شيئاً، بل هو الذي فعل وهو الذي طلب منهم إحضاره واستجابوا لطلبه ليوفي لهم الكيل.



وهم بما فعلوه مع يوسف آذوا أباهم وأحزنوه وكانوا سبباً لذهاب  
بصره لطول بكائه على يوسف، فكأن الأولى أن يقول لهم:  
ما فعلتم بيوسف وأبيه.

قوله: (إذ أنتم جاهلون) كأنه يلتمس لهم العذر بعد كل  
ما فعلوه، وهذا ما قال به المفسرون، وهذا عندي مستبعد والأقرب  
أنه يعنفهم بهذا الوصف ويوبخهم توبيخاً شديداً.

قال الطبري: ولم يعن بذكر أخيه ما صنعه هو فيه حين أخذه،  
ولكن للتفريق بينه وبين أخيه، إذ صنعوا بيوسف ما صنعوا.

قال الرازي: واعلم أن هذه الآية تصديق لقوله تعالى: (وأوحينا  
إليهم لتنبئنه بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) [يوسف: ١٥]، وأما  
قوله: (وأخيه) فالمراد ما فعلوا به من تعريضه للغم بسبب إفراده  
عن أخيه لأبيه وأمه، وأيضاً كانوا يؤذونه ومن جملة أقسام ذلك  
الإيذاء قالوا في حقه: (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل)  
[يوسف: ٧٧]، وأما قوله: (إذ أنتم جاهلون) فهو يجري مجرى العذر  
كأنه قال: أنتم إنما أقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر حال  
ما كنتم في جهالة الصبا أو في جهالة الغرور، يعني والآن لستم  
كذلك.

وقال الزمخشري: أتاهم من جهة الدين، وكان حليماً موفقاً،  
فكلمهم مستفهماً عن معرفة وجه القبح الذي يجب أن يراعيه  
التائب، فقال: هل علمتم قبح (ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم  
جاهلون) لا تعلمون قبحه؛ فلذلك أقدمتم عليه؟ يعني: هل علمتم  
قبحه فتبتم إلى الله منه؛ لأن علم القبح يدعو إلى الاستقباح،

والاستقبح يجر إلى التوبة، فكان كلامه شفقة عليهم وتتصحا لهم في الدين لا معاتبة وتثريباً.

وقيل: (هل) بمعنى قد، أي: قد علمتم كما قال في موضع آخر: (هل أتى على الإنسان حين من الدهر) [الإنسان: ١]، وإنما قالوا بذلك لأنهم كانوا بالفعل عالمين، فلا معنى للسؤال.

قال الشوكاني: ولم يستفهمهم عما فعلوا بأبيهم يعقوب مع أنه قد نالهم منهم ما قصه الله فيما سبق من صنوف الأذى، قال الواحدي: ولم يذكر أباه يعقوب مع عظم ما دخل عليه من الغم وبفراقه تعظيماً له ورفعاً من قدره، وعلماً بأن ذلك كان بلاءً له من الله عز وجل ليزيد في درجته عنده.

\*\*\*\*\*

**(وَكَايِّنَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)**  
[يوسف: ١٠٥]

قرأ بعضهم: (والأرض يمرّون عليها) على أنها جملة مستقلة عما قبلها ويكون المراد بالجملة الأولى كثرة الآيات لاغير، وإن كان المعنى على هذه القراءة يبدو غريباً، فما معنى أن الأرض يمرّون عليها؟. وقرأ ابن مسعود (والأرض يمرّون عليها).

والذي استوقفني في هذه الآية تحديداً مقطعها الأول (وكاين من آية في السماوات) كيف يمرّون على تلك الآيات التي في السماوات؟ كيف يمكن للعين الباصرة أن تشاهد ما في هذه السماوات؟ من هنا نشأت غرابة التركيب، فهذا أمر لم يلتفت إليه

المفسرون وربما تنبهوا إليه ولكن تجاهلوه، ولم يزيدوا على أن قالوا المراد بقوله: (يمرون عليها) يشاهدونها.

جاء في فتح القدير: والمعنى: كم من آية تدلهم على توحيد الله كائنة في السماوات من كونها منصوبة بغير عمد، مزينة بالكواكب النيرة السيّارة والثوابت، وفي الأرض من جبالها وقفارها وبحارها ونباتها وحيواناتها تدلهم على توحيد الله سبحانه، وأنه الخالق لذلك، الرزاق له المحيي والمميت، ولكن أكثر الناس يمرون على هذه الآيات غير متأملين لها، ولا مفكرين فيها، ولا ملتفتين إلى ما تدل عليه من وجود خالقها، وأنه المتفرد بالألوهية مع كونهم مشاهدين لها. وعلى هذا يكون المراد بالسماوات: تلك السماء التي يراها الجميع ويرى ما بها من آيات، أو تلك الكواكب السيّارة.

\*\*\*\*\*

## خاتمة

يدشن هذا البحث لمنهج جديد في التفسير ينهض ويتكىء على الوضوح والجرأة والصراحة في مناقشة النص القرآني وتفسيره وتحليله في محاولة لفهمه دون قيود أو حدود وسدود.

حاولنا من خلال هذا التفسير أن نجيب على عدد من الأسئلة طرحها المفسرون من قبل وطرحنا بعضها، جزء من هذه الأسئلة جدلي افتراضي لإحداث نوع من العصف الذهني وإعمال العقول ودعوتها إلى التفكير، فبحثنا الذي هو جزء من عمل أكبر كتاب في التفسير والتفكير أو ما وراء هذا التفسير.،،،